شفاء الأصم منعقد اللسان (مر ٧: ٣١-٣٧)

الخوري د. نعمة الله الخوري
باحث ومحاضر في الكتاب المقدس

يعرض خبر شفاء الأصم منعقد اللسان وجهًا مُميَّزًا ليسوع الذي يشفي المرضى الملتجئين إليه بممارسة تقنيات تعتمد على عمل اليدين والبصاق والتنهّد؛ تعثّر مرقس على عدّة مستويات في إيراد هذا الخبر؛ فعلى مستوى الطوبوغرافيا، ينذهل القارئ الذي يعرف جغرافية أرض فلسطين والمناطق المجاورة، كيف ينتقل يسوع من صور فيعبر صيدا شمالاً قاصدًا بحر الجليل! كذلك الأمر نستغرب كيف يُحدّد مرقس موقع بحر الجليل في وسط المدن العشر في حين أنّها تقع بالأحرى على تخومه الشرقية! من ناحية أخرى، وعلى مستوى شفاء المريض، لا نعلم كيف وضع يسوع إصبعه في أذني المريض مع العلم أنّ كلّ أذن تستطيع أن تستوعب إصبعًا واحدة فقط. أخيرًا، وعلى المستوى الروائي، نتفاجأ كيف يأمر يسوع الحاضرين بالصمت، في حين أنه أخذ المريض على حدة وشفاه بعيدًا عن أعين الجمع!

سنحاول إيضاح تلك التساؤلات بعد التعرّف على الاهتمامات اللاهوتية التي انفرد بها مرقس في هذا الخبر الذي يهتمّ برسالة يسوع بين الوثنيّين وكيفية ممارسته الأشفية في تلك المناطق.

أولاً: تنقلات يسوع خارج إسرائيل

يعرض لنا مرقس الإطار الجغرافي لتنقلات يسوع حين شفى الأصم منعقد اللسان بقوله: "ثمّ خرج أيضًا من تخوم صور ومرّ بصيدا قاصدًا بحر الجليل في

وسط المدن العشر" (آ ٣١)، فكشف بوضوح أنه يجهل تلك المدن التي يذكرها.

شاء ويلهاوسن[١] أن يُصحِّح هذه الطوبوغرافيا المتعثّرة، فاقترح إلغاء اسم مدينة "صيدا" واستبداله باسم مدينة "بيت صيدا" التي يتوافق موقعها الجغرافي مع التنقّلات التي يوردها الخبر، غير أنّ هذه النظرية المقبولة لا تجد ما يؤيّدها في المخطوطات.

حاول نص متّى الموازي التخفيف من وطأة تعثّر الخبر عند مرقس، فقال ببساطة: "ثمّ انتقل يسوع من هناك وجاء إلى جانب بحر الجليل" (مت ١٥: ٢٩)؛ غير أنّ بردية ٤٥ والمخطوط الإسكندراني وبعض المخطوطات الأخرى عالجت المشكلة بطريقة مغايرة، فأوردت اختلافة (variante) في آ ٣١ تقول: "ثمّ خرج أيضًا من تخوم صور وصيدا"؛ هذه الإختلافة[٢] تستند الى مر ٧: ٢٤ حيث يُضيف مرقس كلمة "وصيدا"، بحسب المخطوط السينّائي والإسكندراني والفاتيكاني: "ثمّ قام من هناك ومضى إلى نواحي صور وصيدا"؛ شاءت هذه المخطوطات أن تُصحّح ما ظنّته خطأ جغرافيًا عند مرقس، فظهر النص فيها متوازنًا، لكنّ مرقس لا يهتم، في إنجيله، بإعطاء معلومات جغرافية دقيقة عن هذه المدن لأنّ اهتماماته اللاهوتية تتوجّه بالأحرى إلى رسالة يسوع في تلك الأراضي الغريبة عن إسرائيل.

ثانيًا: سياق النص: الرسالة بين الوثنيّين

يتميّز مرقس عن الإزائيّين، فيُشير في إنجيله إلى رسالة يسوع في الأرض

(١) J. WELLHAUSEN, *Das Evangelium Markus*, Berlin 1909, p. 58.

(٢) بولس الفغالي، نعمة الله الخوري، يوسف فخري، إزائية الأناجيل الأربعة، الرابطة الكتابية ١٩٩٦، ص ٢٦٧.

الوثنية في حين أن متّى ولوقا(٣) تحفّظًا على ذكر تبشير تلك الشعوب قبل قيامة يسوع من بين الأموات. وللوصول الى هذا الهدف، دوّن الإنجيليّ الثاني وحدة أدبية(٤) تبدأ في ٧: ٢٤ وتنتهي في ٨: ٢٦، وقسمها الى قسمين، ينتهي القسم الأوّل بشفاء الأصم منعقد اللسان، في حين أنّ القسم الثاني ينتهي بشفاء أعمى بيت صيدا (٨: ٢٢- ٢٦). تُشدّد هذه الوحدة الأدبية على قساوة قلوب الفريّسيّين الذين يملكون عيونًا ولا يُبصرون بها، ولهم آذان ولا يسمعون (٨: ١٨)؛ في هذا السياق، نفهم بسهولة أنّ الأصم منعقد اللسان الذي يريد الشفاء لا يسمع بأذنيه، وهذه هي حال أعمى بيت صيدا الذي لا يُبصر.

امتنع مرقس عن تحديد المنطقة الوثنية التي حصلت فيها معجزة شفاء الأصم منعقد اللسان، فالأمر لا يشغل باله إنما يريد أن يقول ببساطة إنّ الشفاء حصل في أرض غريبة قبلت رسالة يسوع بفرح. وصل مرقس الى هدفه ولكنّه أخفق في تحديد تلك المناطق جغرافيًا لأنه يجهلها ولأنّ قرّاءه لا يهتمّون بهذه المسائل، إنما هم يشعرون، بحسب الإنجيل الثاني، أنّهم كانوا، مثل اليهود، في صلب اهتمامات يسوع أثناء رسالته التبشيرية فهم معنيّون بالخلاص الذي يحمله إلى البشر.

ثالثًا: كيفية حدوث الشفاء

المريض هو أصم ومنعقد اللسان؛ الكلمة اليونانية (موغيلالوس) الواردة

(٣) يعتبر متّى أن يسوع كان مهتمًا بتبشير اليهود، فمنع تلاميذه من دخول مدن السامريّين والوثنيّين (مت ١٠: ٥)، وإذا ورد في الإنجيل الأول مرور يسوع بشكل عابر في أرض جدارة حيث شفى المجنونين (مت ٨: ٢٨- ٣٤)، فإنّ أهل تلك المنطقة طردوه طالبين منه أن يرحل عن ديارهم (٨: ٣٤) لأن ساعة الوثنيين لم تحن آنذاك. سننتظر القيامة لنلاحظ أن القائم من الموت يُرسل تلاميذه إلى الرسالة الشاملة بين الأمم (مت ٢٨: ١٩). كذلك يعتبر لوقا أنّ تبشير الوثنيّين سيبدأ بعد الفصح (لو ٢٤: ٤٧).

(٤) LEGASSE S., *L'évangile de Marc*, Paris, 1977, p. 455.

للدلالة على انعقاد لسان المريض، تمنعنا من الظنّ أنّ هذا الأخير هو أخرس، لأنّ الإنجيليّ الثاني، بعد حدوث الشفاء، استعمل كلمة أخرى للإشارة الى الخرس وذلك في تعجّب الجمع الذي انذهل من قدرة يسوع الذي جعل الخرس (ألالوس) يتكلّمون (٧: ٣٧). هذا يعني أنّ المريض لم يفقد حاسة النطق نهائيًا، بل هو يتلعثم في كلامه دون أن يتمكّن من توضيح أفكاره للآخرين؛ إنه تمتام أو بالأحرى ألكن، وقد أوضح الراوي في آ ٣٥ أنّ يسوع لا يهدف إلى جعل هذا المريض يتكلّم، بل أراد أن يجعله يتكلّم مستقيمًا (أورثوس) وبشكل صحيح.

سأل الجمعُ يسوع أن يضع يده على المريض، وهذه دلالة على أنّ وضع الأيدي[٥]، في أخبار المعجزات، يساعد على التعبير على انتقال قوة الشفاء بواسطة عمل اليدين، وقد عرف العالم الهلّنستي واليهودي[٦] عدة شفاءات تحقّقت بواسطة هذه الحركة.

يروي مرقس التفاصيل الدقيقة لِفِعلات يسوع الذي أخذ المريض على حدة[٧] ليمنحه الشفاء، فقد جعل أصابعه في أذني المريض، ووضع له البصاق على لسانه، ورفع عينيه الى السماء متنهّداً وقال كلمة غريبة، فنال المريض الشفاء.

---

(٥) يتضمّن وضع الأيدي معاني مختلفة: تدلّ هذه الحركة أحيانًا على المباركة (مر ١٠: ١٦؛ رج أيضًا تك ٤٨: ١٤، ١٧– ١٨) وتدلّ على الشفاء أيضًا كما ورد في الخبر الذي ندرسه؛ يجب تمييزها عن حركة نقل السلطة أو السيامة بواسطة وضع الأيدي (عد ٨: ١٠؛ تث ٣٤: ٩؛ أع ١٣: ٣؛ ١ تم ٥: ٢٢)، أو عن حركة نقل المسؤولية (لا ١٦: ٢١؛ ٢ أخ ٢٩: ٢٣).

(٦) تُثبتُ كتابات قمران المنحولة التي تشرح سفر التكوين (٢٠: ٢٨– ٢٩) أنّ وضع الأيدي كان معروفًا في العالم اليهودي المعاصر ليسوع؛ يقول إبراهيم الذي يبادر إلى شفاء الفرعون المريض: "صلّيت لأجله ولأجل عظمائه، ووضعت يديّ على رأسه وعادت إليه الحياة" (رج: D. FLUSSER, "Healing through the Laying-on of Hands in a Dead Sea Scroll", *IEJ*, 7 (1957)107-108.

(٧) هذا يذكّرنا بما فعله إيليا حين أخذ الصبي الميت من أمه وذهب وحده إلى العلية وشفاه (١ مل ١٧: ١٩) وقد صنع إليشاع مثله (٢ مل ٤: ٣٣– ٣٤)، مع العلم أنّ يسوع نفسه صنع أموراً مشابهة حين أخرج أعمى بيت صيدا خارج القرية وشفاه على انفراد (مر ٨: ٢٣) وشفى ابنة يائيروس بعد أن أخرج الجميع ولم يبقَ إلاّ والدي الطفلة وبطرس ويعقوب ويوحنا (مر ٥: ٣٧، ٤٠) وقد صنع بطرس نفس الأمر حين أقام طابيثا من الموت (أع ٩: ٤٠).

وضع يسوع أولاً أصابعه في أُذُني الأصم، ولكننا نفترض أنّه وضع بالأحرى في كلّ أذن إبهام يده فقط لأنّ الأذن لا تتّسع لأكثر من إصبع؛ الأصابع(٨)، مثل اليد، تحمل قوة تشفي، كما أنّ اللمس(٩) بواسطة الأصابع هو رمز مهم لنقل القوة وهو يُمارس في الشفاءات العجائبية الواردة في العهد الجديد. تُشكّل لمسات يسوع لأُذُنَي المريض مقدّمات للشفاء، فالرّب ليس بحاجة إلى هذه الطرق كي يشفي المرضى لأنه يستطيع الشفاء من بعيد حتى دون رؤية المريض عن قرب، وقد برهن مرقس هذا الأمر في شفاء ابنة المرأة السورية الفينيقية (٧: ٢٤- ٣٠).

تفل يسوع ثمّ وضع البصاق على لسان المريض، وقد أورد مرقس نفس الأمر في شفاء أعمى بيت صيدا (٨: ٢٣؛ راجع شفاء الأعمى منذ مولده يو ٩: ٦)، ثمّ نظر إلى السماء(١٠) متنهّدًا ليبيّن أنه في وضعية صلاة وابتهال تدلّ على المصدر الذي يستمدّ منه قدرته. أمّا التنهّد الذي رافق النظر إلى السماء، فهو يعبّر عن دعوة إلى القوّة الإلهية مصحوبة بالتيقّن بوجود قوّة مقاوِمة يجب التغلّب عليها.

نال المريض الشفاء بعد أن لفظ يسوع كلمة آرامية "إفّاتا"(١١)، ترجمها الإنجيلي "انفتح"، وهذا دليل على أنّ قرّاء إنجيل مرقس لا يقيمون في فلسطين أو في الأراضي التي تجاورها؛ احتفظ الإنجيلي الثاني بهذه الكلمة التي لا يفهمها

(٨) تدلّ الإصبع في الكتاب المقدس وفي العهد الجديد على قدرة الله (تك ٨: ١٥؛ ٣١: ١٨؛ تث ٩: ١٠؛ مز ٨: ٤؛ لو ١١: ٢٠).

(٩) يسعى أحيانًا المرضى إلى لمس يسوع (٣: ١٠؛ ٥: ٢٧، ٢٨، ٣١؛ ٦: ٥٦)، وأحيانًا يلمسهم يسوع كما فعل في شفاء الأصم الألكن (١: ٤١؛ ٨: ٢٢)؛ هذا اللمس له وُجهة شفائية ويفترض وجود قوة عند الذي يلمس بهدف الشفاء.

(١٠) رج ٦: ٤١؛ ٨: ٢٤؛ لو ١٨: ١٣؛ يو ١٧: ١.

(١١) يريد مرقس، بإيراده الكلمة الآرامية "إفاتا"، أن يظلّ في أجواء الشفاءات التي تُمارس بين الوثنيّين حيث يتلفّظ الشفاؤون بكلمات غريبة وغير مفهومة. حول إفاتا، راجع: R. BERAUDY, "Le rite de l'effata", *AssSeign*, 65 (1963) 68- 73.

قرّاؤه مثلما فعل في إحياء إبنة يائيروس حيث قال لها: "طليتا قوم" (٥: ٤١)، وفي لفظات يسوع الأخيرة على الصليب: "إيلوهي إيلوهي لما شبقتاني" (١٥: ٣٤)؛ تطرح هذه الكلمة الآرامية الواردة في صيغة الأمر المفرد المذكر مشكلة أمام النقّاد لأنّ الأذن في الآرامية هي في صيغة المؤنّث، كما أنّه من المفترض استعمال المثنّى لأن الأمر يتعلّق بالأذنين معًا؛ يمكن تجاوز هذه الصعوبات إذا اعتبرنا أنّ يسوع لا يتوجّه بكلامه إلى الأذنين، بل بالأحرى إلى الإنسان المريض طالبًا منه أن يفتح أذنيه.

يعرف العالم اليهودي واليوناني المعاصر لمرقس العديد من "الشفّائين" الذين يمارسون تقنيات مُماثِلة لشفاء مرضاهم، وهناك فنّ أدبي[١٢] مُتداوَل يروي أخبار الشفاء في العالم اليوناني، ونجد في هذه الروايات صدىً لفِعلات يسوع: يهرب "الشفّاؤون" من أنظار الفضوليّين ويتلفّظون بكلمات غريبة لا يفهمها أحد ويستعملون البصاق في عملية الشفاء التي يُرافقها تنهّد يدلّ على صعوبة المرض الذي يحاول الشفّاء أن يتغلّب عليه. لم تكن هذه الممارسات تقود إلى شفاء المرضى إلاّ أحيانًا قليلة، حين لم يكن المرض ذات أهمية تُذكر، لذلك لم يكن الناس يثقون كثيرًا بهؤلاء المتفاخرين بقدرتهم على منح الشفاء.

لم يجد مرقس صعوبة في عرض يسوع بشكل يماثله مع الشفائين المعاصرين له، فتبعَ نموذجاً يعرفه العالم اليهودي واليوناني، لأنّ قرّاءه الوثنيين لن يستغربوا الأمر الذي يستهجنه غيرُ الوثنيّين.

رابعاً: خبر شفاء خاص بمرقس

ينفرد مرقس عن الإزائيّين فيروي خبر شفاء الأصم الألكن، في حين أنّ متّى

(١٢) حول تأثير الشفاءات المُتداولة خارج إسرائيل على معجزات العهد الجديد، راجع:
C. BONNER, "Trace of Thamaturgie Technique in the Miracles", *HTR*, 20 (1927) 171- 181.

ولوقا امتنعَا عن إيراد هذه المعجزة، وهما ما أرادا أيضًا أن يحتفظَا بخبر شفاء أعمى بيت صيدا (٨: ٢٢- ٢٦) الذي نجده عند مرقس فقط، لأنّ هذين الخبرَين يتضمّنان ممارساتٍ قام بها يسوع مثل الشفّائين المعاصرين له بين الوثنيّين.

نلاحظ تقاربًا واضحًا بين شفاء الأصم الألكن وشفاء أعمى بيت صيدا (٨: ٢٢- ٢٦) في إنجيل مرقس وهذا التقارب يتضمّن دلالات لاهوتية؛ وبالفعل نجد في الخبرَين أشخاصًا يقدّمون المريض إلى يسوع أو يطلبون منه الشفاء (٧: ٣٢؛ ٨: ٢٢)؛ أخذ يسوع المريض في كلا الخبرَين على حدة (٧: ٣٣؛ ٨: ٢٣)، وبصق (٧: ٣٣؛ ٨: ٢٣)، ثمّ وضع اليد (٧: ٣٢) أو الأيدي (٨: ٢٥)، ولمس العضو المريض (٧: ٣٣؛ ٨: ٢٥).

يتضمّن هذان الخبران في موقعهما الحالي في إنجيل مرقس معنىً رمزيًا بسبب تقارب المريضَين مع الذين يلومهم يسوع بقوله: "لكم عيون ولا ترون، ولكم آذان ولا تسمعون" (٨: ١٨). يجد إذًا خبر شفاء الأصم الألكن وخبر شفاء أعمى بيت صيدا مكانهما في سياق إنجيل مرقس، فالشفاء المشابه لممارسات الوثنيّين لا يُزعج القرّاء وهذان المريضان يرمزان روحيًا إلى ضرورة استعادة السمع والبصر للسير وراء يسوع. يبدو أنّ مرقس أقحم في هذه الوحدة الأدبية خبرَي الشفاء لأنه اعتبر أنهما يندرجان في موقعهما الطبيعي؛ نستطيع هنا أن نفهم لماذا تعثّرت مقدمة الخبر فوردت معلومات جغرافية مغلوطة حين ترك يسوع صور قاصدًا المدن العشر عبر صيدا؛ يبدو أن مرقس استقى خبر شفاء الأصم منعقد اللسان من مصادره، وأقحمه في المتتالية التي تتكلم عن رسالة يسوع بين الوثنيّين، ولم يعمد إلى تصحيح المعلومات الجغرافية التي جعلت الخبر متعثّرًا لأنه لا يهتم بطوبوغرافية تنقّلات يسوع بل يريد أن يعرض لنا المعنى اللاهوتي لرسالته.

خامسًا: الأمر بالصمت وعدم إفشاء خبر المعجزة

بعد أن شفى يسوع الأصم منعقد اللسان، أوصاهم ألاّ يُخبروا أحدًا بشأن المعجزة (آ ٣٦)؛ في بداية الخبر، يؤكّد مرقس أنّ يسوع أخذ المريض على انفراد بعيدًا عن أعين الجمع، فكيف يوصيهم الآن بعدم إفشاء أمر المعجزة وهم لم يعاينوا الحدث؟

يُشدّد مرقس في إنجيله على ضرورة عدم إعلان شخصه قبل القيامة، فنحن نلاحظ هذا الواقع مرارًا عديدة في إنجيل مرقس(١٣). هنا نتساءل: كيف يصنع يسوع المعجزات المدهشة، وفي الوقت عينه يأمر بالصمت وعدم إفشاء الخبر؟

لاحظ الشرّاح وجود ميزة خاصة في إنجيل مرقس وهي ما يُسمّى: "السرّ المسيحاني"(١٤)؛ فرض يسوع الصمت على معجزاته لأنها تكشف عن شخص المسيح المنتظر؛ وبالفعل تحرّكت الجموع وراء يسوع مدفوعة بقوة تعاليمه ومعجزاته المُدهشة، وحاولوا أن يقيموه ملكًا عليهم؛ يتّضح إذًا أنّ الجمع لم يفهم معنى مسيحانية يسوع، وهذا التجمّع وراء ملك يغيظ السلطة الرومانية الحاكمة التي تتدخّل عادة في مثل هذه الحالات وتقمعها بسفك الدماء.

خشي يسوع من هذا الواقع وفرض الصمت على معجزاته، ولكنّنا نلاحظ في القسم الثاني من إنجيل مرقس أن هذا الأمر بالصمت يختفي؛ وافق يسوع على لقب ابن داود (مر ١٠: ٤٨) ودخل أورشليم دخول الملوك الفاتحين وسط

---

(١٣) منع يسوع الأبرص من أن يقول لأحد عن أمر شفائه (١: ٤٤)، وحين أقام ابنة يائيروس أوصاهم أن لا يعلم أحد بشيء (٥: ٤٣)، وقال لأعمى بيت صيدا لا تدخل المدينة (٨: ٢٦). ونلاحظ هذا المنع بشكل خاص بعد اعتراف بطرس في قيصرية، أن يسوع هو المسيح، حيث نهاهم عن كشف الأمر (٨: ٣٠)؛ ونرى نفس الأمر بعد نزول يسوع والتلاميذ الثلاثة من جبل التجلي (٩: ٩).

(١٤) J. DELORME, "Guérison d'un sourd-bègue: Mc 7, 31- 37", *AssSeign*, nouv. série, 54 (1972) 37.

هتافات الشعب (مر ١١: ١- ١١)؛ السبب في ذلك يعود إلى أن يسوع اقترب من آلامه، وهو لا يخشى من فهم مغلوط لمسيحانيته، لذلك أنبأ ثلاث مرات عن آلامه، فتشكّك بطرس والتلاميذ، ولكنّ يسوع طمأنهم أنهم سيفهمون معنى الأحداث بعد القيامة، حينذاك يستطيع التلاميذ والناس أن يعلنوا بعبارة صريحة أن يسوع هو المسيح.

من المحتمل أن يكون مرقس أضاف على خبر الشفاء أمر الصمت الخاص به، ولم يعمد إلى تصحيح التناقض مع الخبر الذي يُؤكّد غياب الحاضرين.

خاتمة

تعجّب الجمع الحاضر كيف شفى يسوع ذاك المريض، فتذكّروا وعد الله الوارد في أشعيا: "جعل الصمّ يسمعون والخرس يتكلّمون" (أش ٣٥: ٥- ٦)؛ يُشكّل إعلان الجمع تعبيرًا عن الإيمان المسيحي الذي يُعلن أنّ الشفاءات التي يُحقّقها يسوع هي علامات الخلاص، وقد صدر التعبير هذه المرّة على شفاه وثنيّين قاطنين في بلاد غريبة عن إسرائيل. هكذا يُمثّل الأصم الألكن في شخصه، انفتاح الوثنيّين على قبول البشارة المسيحانية ويعكس خبرُ شفائه انضمامَ الشعوب الوثنية إلى كنيسة ما بعد القيامة.

تُعبّر ردّة فعل الناس عن مديح يمجّد انتصار يسوع وقدرته على منح المرضى الشفاء، فأعماله تستحقّ المديح الواجب لأعمال الله ساعة الخلق، لذلك ورد في كلامهم: "صنع كلّ شيء حسنًا" (آ ٣٧)، وهذه إشارة واضحة الى الخلق في التكوين (تك ١: ٣١؛ سي ٣٩: ١٦)؛ لقد بدأت مرحلة جديدة حين قوّم يسوع الإعوجاج الذي لحق بالإنسان، فردّه إلى حالته المستقيمة التي رسمها له الله حين خلقه على صورته ومثاله.

يريد مرقس أن يبرهن ان يسوع هو ذاك النبي المقتدر الذي يصنع المعجزات المذهلة، كما تنبّأ الأنبياء، ويحذّر من صمم المسيحيّين وبكمهم ويدعوهم إلى

الإلتجاء إلى الطبيب السماوي الذي يداوي جراحات البشرية الخاطئة، ويعيد الخليقة إلى وضعها الطبيعي خاصة، وأنه يُبدع في أعماله كلّها، كما اعترف الجمع بعد الشفاء.